القناص

سعد بن أبي وقاص

رضي الله عنه

قد يكون ثمن دخولك الجنة.. موهبتك!

« نعم.. مهما حدث سأذهب لرسول الله ﷺ وأعلن إسلامي بين يديه..وليكن ما يكون».

نطق بها الغلام «سعد » بعدما أجهده التفكير، وأضناه الصراع النفسي في اتخاذ قرار حياته..

اعتناق الإسلام..

لا شك أن القرار كان في غاية الصعوبة لشاب ليس له من العمر إلا سبعة عشر عاما..وكان يبدوأنها كانت بوادر رجولة، سيشهد بها التاريخ بعد سنوات..

كان القرار صعبا على الصغير..

لم تكن صعوبة القرار في الاقتناع برسالة رجل يعرفه وتعرفه قريش كلها، وتعرف صدقه وأخلاقه..

لم تكن صعوبة القرار في عبادة إله واحد هو خالق السموات والأرض، أو ترك أحجار لا تضر ولا تنفع..

كان سعد أعقل من أن يضطرب في هذه المساحة المحسومة له، ولا نستطيع أن نغفل أن الذي كان وراءه أستاذ الدعوة الفردية بلا منازع (أبو بكر الصديق).. لذا كان سعد ثالث من أعلن إسلامه بين يدي رسول الله ﷺ.. حتى قال:

- ولقد أتى علي يوم، وإني لثلث الإسلام!!

إنما كان ما يقلقه أمر آخر..

كان لابد أولا من إخفاء الأمر على قريش، فلا زالت الدعوة تمر بمرحلتها السرية، وإذا كشف الأمر سيتعرض لمشكلات ربما لا يعرف كيف يواجهها، وإذا تصدى إلى مشكلات المجتمع، فكيف يتصدى للمشكلة الأكبر والأعنف والأشد..

أمه..

كان يعلم أن أمه لن تمرر الموقف بسهولة، بل ستعترض بإصرار ما بعده إصرار، وستمارس عليه ضغوطا هو في غنى عنها الآن وهو في بداية إسلامه..

حاول ألا تعرف.. لكنها علمت بالخبر..

وكان ما توقعه سعد..

علمت الأم بالخبر.. فاندهشت واعترضت وهاجت وثارت وحاورت وجادلت..

لكن «سعد» كان صلبا قويا أمام ضغوط أمه ومحاولاتها..إلى أن ألقت الأم –كالعادة – بالورقة الأخيرة..ورقة العواطف..

لقد هددت بأنها ستضرب عن الطعام والشراب حتى يترك سعد دينه ويعود إلى وثنيته

فقالت له في ثورة:

يا سعد! ما هذا الدين الذي قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا، أو لا آكل، ولا أشرب حتى أموت، فتعير بي، فيقال: يا قاتل أمه.

كم كان الموقف صعبا على سعد، وكم كان الصراع النفسي على أشده وهو يواجه دعوة أمه التي طالما أحبها وبرها، ودعوة حبه الجديد والأبدي: حب الله ورسوله ﷺ..

ولقد وازن سعد الأمر جيدا..وعلم أن الحب لابد أن يكون درجات، وأنه لابد وأن يتغلب حب الله ورسوله ﷺ على حب الأم..

قرار صعب آخر لابن السابعة عشرة..

«لا تفعلي يا أمه، إني لا أدع ديني هذا لشيء».

ربما قالها سعد وهو يبكي أو يكاد يشرف على البكاء، فإن المشاعر مهما تحجرت فلن تستطيع أن تصبر على أذى يصيب الأم..

وتحدى سعد مشاعره وهو يرى أمه تمتنع عن الطعام يوما كاملا حتى أجهدت إجهادا شديدا..

ويراها سعد، فيشفق عليها إشفاقا لا حدود له، حتى يكاد يبكي لما يراها عليه، ولكنه يتماسك ويقول لها في رفق الابن البار المصر على المبدأ:

- يا أمه! تعلمين - والله - لو كان لك مائة نفس، فخرجت نفسا نفسا، ما تركت ديني، إن شئت فكلي أو لا تأكلي .

كفى يا سعد..

انتهى الاختبار..إنه أحد اختبارات الثبات التي يختبر الله بها عباده، ولقد نجحت يا سعد..نجحت بامتياز..

فلقد انتصر سعد وإيمانه..

وهزمت أمه. أمام إصراره وصموده.. فتناولت الطعام، وعادت إلى طبيعتها..

ونزل القرآن يشيد بسعد وموقفه:

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ [لقمان:١٥].

ليكمل سعد الطريق..

طريق الإيمان.

* * *

كان الرسول ﷺ يرى في سعد بن أبي وقاص شخصية حربية ماهرة، مهارته في رمي القوس كانت تلفت النظر بشدة، صلابته عند الشدائد معروفة للجميع، لقد صنفه رسول الله ﷺ محاربا من الطراز الأول، وادخره ليوم ما.. سيستعين به فيه..

ولقد أتى ذاك اليوم..

فلقد كان الموعد مع أول سرية للمسلمين بعثها الرسول ﷺ إلى الحجاز، وفيها.. هاجم المشركون المسلمين بضراوة، فكان سعد بسهمه كالأسد، يدافع عن أصحابه لا يتزعزع.. ولقد كان ذلك اليوم يومه مع التاريخ..فلقد كان سعد أول من رمى بسهم في سبيل الله.

لم يسبقه إلى ذلك أحد..كان هذا تفردا لسعد، كما كان تفردا له يوم أحد..

موقف غاية في الصعوبة والخطورة..وبطولة الأبطال لا تكون إلا في هذه المواقف..

انهيار مفاجئ في جيش المسلمين بعد خطأ الرماة بالنزول من على الجبل..

الضربات تتقاذف على المسلمين من كل اتجاه، وهروب البعض إلى المدينة..

في هذا التوقيت الحرج.. كان الرسول ﷺ في خلفية الجيش يراقب الموقف هو وتسعة من أصحابه، سبعة من الأنصار، واثنين من قريش..

كان سعد بن أبي وقاص واحدا منهم، وثانيهم كان طلحة بن عبيد الله.

ويتخذ الرسول ﷺ قرارا شجاعا وصعبا، بالتقدم إلى الأمام لإدارة المعركة وإنقاذ الموقف، فينتبه المشركون ليتجهوا بسهامهم إلى الرسول ﷺ في محاولة للقضاء عليه.

ويحيط التسعة بالرسول ﷺ من كل اتجاه، فيتلقون عنه عشرات الطعنات والسهام حماية له..

وهنا، يعطي الرسول ﷺ كنانته وسهامه إلى سعد بن أبي وقاص، ليهتف له في حماس:

«ارم سعد.. فداك أبي وأمي !! ».

ربما لم يستوعب سعد ما قاله الرسول ﷺ له للحظات..

فخطورة الموقف لم تدع له فرصة للتأمل في مقولة الرسول ﷺ له .. فهو لم يكن يعنيه إلا أمر واحد، حماية الرسول ﷺ والدفاع عنه بكل ما يملك..

وبمهارة فائقة، وبسرعة غير عادية، يقذف سعد السهام في كل اتجاه على المشركين..وفي وسط هذه الأهوال، عادت الجملة ترن في أذنيه وكأنها تذكره بها تريد له أن ينتبه :

«ارم سعد..فداك أبي وأمي ».

لم يقلها الرسول ﷺ لأحد غير سعد طوال حياته.. أي فخر يتباهى به الصحابي الجليل على العالمين؟!

و كلما مرت الأيام.. زادت مكانة سعد عند رسول الله ﷺ.

عن ابن عمر، قال:

«كنا جلوسا عند النبي ﷺ قال: «يدخل عليكم من هذا الباب رجل من أهل الجنة».

فطلع سعد بن أبي وقاص. كان في تلك الجلسة عمرو بن العاص، الذي ما أن انتهى المجلس

حتى هرع إليه يسأله في إلحاح:

ما الذي تفعله يا سعد حتى يقول عنك الرسول ﷺ : إنك من أهل الجنة ؟

نظر إليه سعد وأجاب في هدوء:

لا شيء أكثر مما نعمل جميعا ونعبد..غير أني لا أحمل لأحد من المسلمين ضغنا ولا سوءا.

يا لله..لقد شهد الرسول ﷺ لسعد بن أبي وقاص أنه من أهل الجنة..أهناك جائزة يستطيع أن يفوز بها امرؤ أكبر من ذلك؟!

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فلقد دعا الرسول ﷺ لسعد بإجابة الدعوة.. ويا لها من دعوة...

عن قيس، أخبرني سعد:

أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم استجب لسعد إذا دعاك».

كانت إجابة الدعوة سلاحا جديدا يستخدمه سعد في دعوته، ولم يكن يستخدمه إلا بحق.. فذات مرة مر برجل يسب علي بن أبي طالب وطلحة والزبير، فطلب منه سعد أن يتوقف فلم يفعل، فشهر سلاحه أمامه قائلا:

إذا أدعو عليك..

فنظر إليه الرجل وقال في سخرية:

أراك تتوعدني كأنك نبي !!

فانصرف سعد وتوضأ وصلى ركعتين، ثم رفع يديه وقال: اللهم إن كنت تعلم أن هذا الرجل قد سب أقواما سبقت لهم منك الحسنى، وأنه قد أسخطك سبه إياهم، فاجعله آية وعبرة.

فلم يمض غير وقت قصير، حتى خرجت من إحدى الدور ناقة لا يردها شيء حتى دخلت في زحام الناس، كأنها تبحث عن شيء، ثم اقتحمت الرجل فأخذته بين قوائمها.. وما زالت تتخبطه حتى مات!!

أترى «سعدا» كان قاسيا بدعائه على الرجل ؟ فإن كان كذلك.. فلم استجاب الله لدعائه على رجل بلغت به الوقاحة وقلة الدين أن يسب عليا وطلحة والزبير..

إن الله لا يستجيب دعاء شر..

ولقد استجاب الله لسعد ليجعل الرجل عبرة لمن يعتبر، ويرسل رسالة لسعد: أن الجسور موصولة بينه وبين الله.

ولكن السؤال.. كيف دعا سعد على رجل دعوة قتلته، وقد قال لعمرو بن العاص: إنه لا يحمل ضغينة لأحد ؟!

والجواب.. أن «سعدا» لم تكن المشكلة تخصه ولم يكن ينتصر فيها لنفسه.. لقد كان ينتصر

لأصحاب سبقوه بالحسنى ووجب عليه أن يحافظ عليهم.

إنه احترام صحابي لأصحابه، ورد لغيبتهم إخلاصا لهم ووفاء..

كانت مكانة سعد عند رسول الله ﷺ فريدة بحق.. يستحقها سعد بشخصيته وموهبته التي ظلت تزداد كلما دارت برأس الرسول ﷺ المحن والشدائد..

وهل كان يوم أشد على المسلمين من أحد؟..

ففي خضم المعركة كان الرسول ﷺ ينادي على سعد ويناوله النبال وهو يقول جملة لم يقلها الرسول ﷺ لأحد في حياته إلا لسعد بن أبي وقاص:

«ارم سعد..فداك أبي وأمي ».

قال علي: ما سمعت النبي ﷺ يجمع أبويه لأحد غير سعد.

ولقد ورث لابنته عائشة تلك الشهادة؛ فظلت تفتخر بها أمام أقرانها فتقول:

- أنا ابنة المهاجر الذي فداه رسول الله ﷺ يوم أحد بالأبوين.

* * *

«لا يا أمير المؤمنين.. هذه مخاطرة غير محسوبة، في وقت يمر فيه الإسلام بفترة عصيبة ».

نطق بها الصحابي عبد الرحمن بن عوف في اجتماع الشورى الذي عقده عمر بن الخطاب، لصد الهجمات الغادرة التى شنها الفرس على المسلمين ، وبعد معركة الجسر التي ذهب ضحيتها أربعة آلاف مسلم في يوم واحد..

عدد رهيب من قتلى المسلمين لم يتعود عليه المسلمون من قبل، فكيف وقد حدث ذلك في يوم واحد ؟!

ولم يقف الأمر عند هذا الحد.. فلقد نقض أهل العراق عهودهم والمواثيق التى كانت عليهم. وبلغ الأمر بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، أن قرر أن يذهب هو بنفسه على رأس جيش إلى العراق ويستخلف على بن أبي طالب على المدينة، لولا أن راجعه الصحابة في رأيه، وأقنعوه بأن وجوده في المدينة هوالأفضل، ليدير المعركة من المدينة ولا يغامر بحياته ، وأن يرسل قائدا خبيرا إلى العراق ليرد هجوم الفرس.

واقتنع عمر بن الخطاب ليبدأ هو وأصحابه في البحث عن إجابة لسؤال صعب:

من ؟ من سيتولى المهمة ؟

من سيحل محل عمر بن الخطاب في قيادة جيش المسلمين في العراق ؟

من القائد المحنك الشجاع الجريء الحكيم ؟

كانت الأسماء تتداول بين الصحابة في الاجتماع، حتى هتف عبد الرحمن بن عوف قائلا:

- إنه هو وليس غيره..

نظر الجميع إليه وكأنهم في شوق لسماع اسم الفارس المنتظر، وقد بدا عليهم الإجهاد من البحث..وتابع عبد الرحمن بن عوف:

محارب خبير..وذو صلابة في الإيمان وشجاعة في الميدان وتواضع في الخلق.

هتف أحدهم:

- أرحنا يا رجل..وكفاك ألغازا..

قال عبد الرحمن:

سعد بن أبي وقاص..

نظر الجميع إلى بعضهم البعض نظرة ارتياح.. وأجمعوا الرأي عليه؛ لما يعرفونه جميعا من صفات تؤهله لهذا الموقف الصعب.

ولم لا؟.. وهوالفارس يوم بدر ويوم أحد ؟

ولم لا؟.. وهو رجل من أهل الجنة..ورجل مستجاب الدعوة؛ إذا سأل الله النصر أعطاه ؟

وبسرعة..أرسل أمير المؤمنين عمر إلى سعد بن أبي وقاص يبلغه بالمهمة، ويشرح له أبعادها وخطورتها..

ستكون قائدا على ثلاثين ألف جندي من المسلمين في مواجهة مائة ألف من الفرس المدربين والمسلحين بأحدث الأسلحة..

اتجه مباشرة إلى القادسية، فهي بابك إلى فارس..

اكتب إلي كل فترة بسيطة..واكتب إلي كل ما تراه حتى تجعلني أرى الحرب وأنا جالس في المدينة..

كانت التعليمات واضحة ومحددة.. ولم يكن سعد في حاجة إلى الذكاء أوالتواضع لكي ينفذ كلام أمير المؤمنين حرفيا..

كان سعد يعلم ويفهم أن خطورة الموقف تتطلب مراسلات دائمة بينه وبين القائد الأعلى للقوات المسلحة.. وأن عليه أن يتلقى التعليمات ساعة بساعة وكأنه مجرد جندي في جيش، لا فارسا مشهودا له بتاريخ عسكري طويل ومشرف.

كان سعد يفهم أن عمر أمير المؤمنين، هو نفسه لا يأخذ قرارات فردية عنجهية غير مسئولة، بل إن الأمر لا يخرج إلا بعد مشاورات ومشاورات..

وأراد سعد أن ينفذ التعليمات أخذا ببركة الشورى..

ولكن أين الزعامة والبحث عن الذات والنزعة الفردية والرغبة في حركات استعراضية

يذكرها التاريخ في الكتب..

لا وجود لها مع سعد بن أبي وقاص..

لا وجود لها مع رجل من أهل الجنة..

لا وجود لها مع رجل من أتباع محمد ﷺ..

وينزل سعد القادسية، ويتجمع الفرس جيشا وشعبا، كما لم يتجمعوا من قبل، ويتولى قيادة الفرس أشهر وأخطر قوادهم..«رستم».

ويبعث سعد بمراسليه إلى عمر بن الخطاب ليخبره بتحركات جيش رستم، وأنه بدأ الزحف عليهم.. في الوقت الذي بدأت تظهر فيه بوادر مرض جلدي أصاب جسد سعد، فنثر الدمامل في أجزاء متفرقة من جسده.

ويصل الرد من عمر.. ليس بالهجوم.. ولكن برسالة إلى رستم يدعوه فيها إلى الإسلام..

ويطول الحوار بينهم وبين قائد الفرس، وأخيرا ينهون الحديث معه إذ يقول قائلهم ربعي بن عامر:

– الله جاء بنا، وقد بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه، لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك منا، قبلنا منه، ورجعنا عنه، ومن قاتلنا قاتلناه،حتى نفضي إلى وعد الله..

«ويسأل رستم: وما وعد الله الذي وعدكم إياه؟».

فيجيبه الصحابي: الجنة لشهدائنا، والظفر لأحيائنا.

ويعود الوفد إلى قائد المسلمين سعد، ليخبروه أنها الحرب.

ويحزن سعد أشد ما يكون الحزن..حزنا يصل إلى حد البكاء..ليس خوفا من مواجهة رستم بجيوشه..فما كان من مثل سعد أن يخاف من مواجهة أيا كانت..ولكن لأنه بهذا الرد السريع، أيقن أنه قد حرم من المشاركة في الحرب..

فلقد زاد عليه المرض واشتد حتى ملأت الدمامل جسده، فلم يقو على الجلوس، ومنعته من أن يتمكن من ركوب فرسه..

كم تمنى سعد لوأن تبدأ الحرب قبل اشتداد المرض أو بعد الشفاء منه.. لكنها كانت مشيئة الله..

ومع هذا.. لم يكن ذلك أبدا مدعاة لليأس.. فأتباع محمد ﷺ لا ييأسون ولا يستسلمون ..

وبدأ سعد المعركة..

وبدأ يشعل الروح المعنوية لجنوده وقد بدأ بتلاوة الآية الكريمة:

بسم الله الرحمن الرحيم..

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]..

إنها آية كلها أمل وتفاؤل وثقة بنصر الله..

واستمر سعد يخطب في جنوده، يذكرهم بعظمة مهمتهم وثواب أدائها..

وبعد فراغه من خطبته، صلى بالجيش صلاة الظهر، ثم استقبل جنوده مكبرا أربعا: الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر..

ورجت الأرض بالتكبير كأنه زلزال..وأشار سعد بسهمه إلى العدو قائلا لجنوده في حماسة وإصرار:

- سيروا على بركة الله..

وأخذ سعد يتابع المعركة من شرفته.. يحرك الجنود ويوجههم ويبث فيهم الحمية والحماسة..

كانت جروحه تنزف بشدة..ولكنه لا يكاد يشعر بها..فأصحاب الجهاد في وقت الجهاد..تنفصل أجسادهم عن مثل هذه التفاهات..

كان سعد مشغولا عن جروحه بالقعقاع وأشعث وجرير ونعمان، ينادي عليهم ويصرخ فيهم بالعزم والأمل..

وجاء نصر الله..

لقد قتل رستم.. وأخذ جنود الفرس يتساقطون كالذباب..وزحف المسلمون حتى نهاوند ووصلوا المدائن وحملوا تاج كسرى..

انتصر سعد انتصارا مبهرا في القادسية..

وكان على موعد بنصر مبهر آخر في موقعة أخرى بعدها بعامين..

موقعة المدائن..

* * *

على مدى عامين.. مناوشات مستمرة بين المسلمين والفرس..انتهت بتجميع الفرس أنفسهم من فلولهم المتناثرة في المدائن، للتأهب لحرب الفرصة الأخيرة..

لم يكن الوقت هذه المرة في صالح سعد، بعكس المرة الأولى في القادسية.. فكل ساعة تمر، تعني إعطاء فرصة للفرس للتجمع والتفكير والاستعداد..

فقرر سعد الهجوم..

ولكن كيف يصل إليهم وبينه وبينهم نهر دجلة؟ ليس هذا فحسب؛ بل كان الوقت وقت فيضان!

ولكن الاستسلام لا يعرف طريقه إلى سعد أبدا، وجلس مع قادته يتشاورون لحل المشكلة.. ووضع خطة الهجوم.

وكان الحل..هو تشكيل فرق بحث على مساحة واسعة من نهر دجلة لاكتشاف أفضل المناطق لخوض الجيش فيها بأقل قدر ممكن من المغامرة..

ونجحت فرق البحث بالفعل في اكتشاف منطقة من النهر ضحلة إلى حد كبير، يستطيع الجنود أن يعبروا منها بسلام..

ويأتي الجزء الثاني من الخطة..

كيف تتم عملية تغطية الجنود الذين يعبرون النهر؟

فالعدو يعسكر على الضفة الأخرى..مما يعني الهجوم على كل من سيصل من المسلمين إلى تلك الضفة..

وكان الحل تشكيل كتيبتين..

الكتيبة الأولى هى كتيبة الأهوال.. يقودها عاصم بن عمرو..مهمتها أن تعبر النهر وتعسكر في مكان آمن لحماية الكتيبة الخرساء التي ستعبر بعدها، وقائدها القعقاع بن عمرو..

وهتف سعد في المسلمين أن يقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل..

وبسرعة البرق.. اقتحم بفرسه نهر دجلة كأنه يرمى سهما من قوسه المدربة الخبيرة، واقتحم الناس وراءه، لم يتخلف عنه أحد، فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى ملؤوا ما بين الجانبين، ولم يعد وجه الماء يرى من أفواج الفرسان والمشاة، وجعل الناس يتحدثون وهم يسيرون على وجه الماء كأنهم يتحدثون على أرض سهلة منبسطة، بعدما شعروا بما أنزل الله عليهم من الطمأنينة والأمن، والوثوق بأمر الله ونصره ووعده وتأييده.

ونجحت الخطة نجاحا مذهلا..أذهلت الفرس والمسلمين..

بل أذهلت «سعدا» نفسه..

وستذهلون أنتم أيضا.. عندما تعلمون رقم الخسارة التي لحقت بالمسلمين بعد عبور النهر..

لقد كان الرقم..

صفرا !!

نعم..صفرا !!

أي عبور لجيش في التاريخ بطوله وعرضه لم يفقد فيه جندي واحد ؟!!

إنه جيش سعد.

بل إن الخسارة لم تنجح في أن تنال من نفس جندي واحد فحسب، بل إنها لم تجرؤ لتنال شيئا من

معدات الجنود وأدواتهم..

فلقد سقط من أحد الفرسان كوب له أثناء العبور، فعز عليه أن يكون الوحيد من بين زملائه الذي يفقد شيئا في يوم نصر كامل ندر أن يكون.. فنادى على من حوله من زملائه لكى يساعدوه على انتشال الكوب.. وجاءت موجة عالية لتتعاون معهم وترفع إليهم الكوب ليلتقطوه..وكأنها تقول لهم:

- الكل معكم اليوم..حتى أنا!!

ها هو سعد.. يضع خطة العبور، ويحقق نجاحا منقطع النظير.

أصبح سعد أميرا على العراق.. ليبدأ معركته الجديدة مع البناء والتعمير.. فقام بتوفير الخدمات الأساسية للشعب العراقي وأرسى قواعد الإسلام وأخلاقه في البلاد.

إلا أن شكوى غريبة جاءت من أهل الكوفة، بأن «سعدا » لا يحسن الصلاة !!!

كان سعد بن أبي وقاص يسمع الشكوى فيضحك ويضحك.. لعلمه أن شيئا ما وراء تلك الشكوى لا يعرفه..

لكنه على أي حال.. كان موقفا تجلى فيه عدل الإسلام واحترامه لرغبات الشعوب، حتى وإن كانت على حساب صحابي شهد له الرسول ﷺ بأنه من أهل الجنة..

لقد أراد عمر أن يطبق القوانين الأرضية دون استناد لشهادة محققة..

وفي نفس الوقت إطلاق لرأي سديد.. أن من يشهد الرسول ﷺ له بالجنة من الممكن أن يخطئ لأنه بشر..وإذا أخطأ فلابد من أن يحاسب احتراما لرأي الشعب وإرادته في محاسبة المسئولين.. لا دكتاتورية.. لا عنجهية..لا محسوبية..لا مصالح.. لا قهر..لا اعتقالات للمعارضين..

إنه الإسلام.

وعلى الفور. . استدعى عمر «سعدا» للتحقيق معه في المدينة.. وبكل تواضع وامتثال لأمر أمير المؤمنين، نفذ الأمر دون غضب أو محاولة تمرد..

وكانت نتيجة التحقيق..تبرئة سعد واتخاذ قرار بعودته مرة أخرى إلى الكوفة..

كان من الطبيعي أن يعود سعد إلى الكوفة مرفوع الرأس..

كان من الممكن أن يعود ليحاسب من شكوه إلى أمير المؤمنين حسابا خفيا، ويحافظ في نفس الوقت على مظهر العدل والتقوى..

كان طبيعيا أن يعود.. لأنه لم يخطئ..

لكن «سعدا» اعتذر لعمر..

مفاجأة..أليست كذلك؟!

تعالوا نتعلم..

صحيح أن «سعدا» ثبتت براءته أمام الناس..لكنه في داخله شعر أن العلاقة بينه وبين أهل الكوفة لم تصبح على ما يرام..فلم يحب ولم يرض أن يكون رئيسا لشعب يشعر أنه لا يحبه..

لقد فضل سعد الانسحاب الهادئ من حياة الإمارة، ما دامت ستصيبه بتوتر يقلقه في كل لحظة..

انسحب من السلطة هكذا.. بإرادته الكاملة !!

أرأيتم حساسية وصدقا مع النفس كهذا ؟!

أرأيتم رقة قلب في قائد مغوار لا يخشى أعظم قوة في العالم آنذاك، بل يهزمها شر هزيمة كسعد ابن أبي وقاص؟!

تلك الرقة هي التي جعلت «سعدا» لا يحمل ضغينة لأحد..

تلك الرقة هي التي زفت إليه بشرى دخول الجنة..

نعم رقة.. لكنها رقة لا تنقصها الحكمة..جعلته ينسحب مرة من إمارة العراق..

وجعلته ينسحب مرة أخرى..

أيام الفتنة.. الفتنة الكبرى.

* * *

جيش على رأسه معاوية بن أبي سفيان.. وهو مسلم..

يحارب جيشا على رأسه الخليفة الرابع للمسلمين علي بن أبي طالب..وهو مسلم..

كان صعبا على سعد أن يتحمل هذا..

كان صعبا على كل من عاصر رسول الله ﷺ أن يجد أصحابه يتقاتلون أمامه..

فقرر سعد الانسحاب..

اعتزل المعركة برمتها وهوالعسكري الماهر صاحب المعارك والانتصارات..

ولم يكتف بعدم المشاركة في الفتنة .. بل أمر زوجته وأولاده بألا ينقلوا إليه شيئا من أخبارها أبدا..

ويذهب إليه ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، ويقول له:

يا عم، ها هنا مائة ألف سيف يرونك أحق الناس بهذا الأمر.

فيجيبه سعد: أريد من مائة ألف سيف، سيفا واحدا.. إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئا، وإذا ضربت به الكافر قطع!

ويدرك ابن أخيه غرضه، ويتركه في عزلته وسلامه.

* * *

مرت الآن أربعة وخمسون عاما من الهجرة..ومرت معها ثمانون عاما من عمر سعد بن أبي وقاص.. ليقترب جدا من بشرى الرسول ﷺ له بالجنة..

ويبكي ابنه له بدموع الفراق، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة في حجره، فيبتسم له أبوه قائلا:

- يا بني ما يبكيك؟ إن الله لا يعذبني أبدا وإنني من أهل الجنة.

الآن سيسافر سعد إلى أرض جديدة، على موعد بلقاء الله..ولقاء الأحبة.

ولقد أتم سعد استعداده منذ زمن..

فلم ينس شيئا قط..حتى ملابسه التي سيرتديها للمقابلة..كان محتفظا بها في خزانته..

إنه ثوب يا لغلو ثمنه..لا..إنه لا يقدر بثمن..

ثوب بدر..

ثوب يحمل التاريخ والتضحية والمغفرة وخاتم دخول الجنة لآخر المهاجرين وفاة..

وفي المدينة.. لحق سعد برفاقه الذين سبقوه إلى الله..

نعم الصحبة في الدنيا والآخرة..

وداعا يا سعد..

وداعا يا بطل القادسية، وفاتح المدائن، ومطفئ النار المعبودة في فارس..

إلى الأبد.

* * *

دروس و تحليل

١- مرحلة المراهقة مرحلة اتخاذ قرارات مصيرية (سعد يتخذ قرار الإسلام وهو ابن سبعة عشر عاما).

اتخذ سعد قرار الدخول في الإسلام وهوأبن سبعة عشر عاما، وهو قرار مصيري يحتاج إلى نضج وفكر وعقلانية، وهذه النوعية من القرارات تتسم بها مرحلة المراهقة، التي يحدد فيها المراهق مصيره العلمي فيختار فيها كليته ويحدد فيها طريقة تفكيره وأسلوبه في الحياة، إن مرحلة المراهقة مرحلة مصيرية يتشكل فيها الإنسان التشكيل النهائي الذي غالبا ما سيستمر عليه طيلة حياته، ولذلك.. ينبغي على الطالب والمراهق عموما أن ينمي عقله بالقراءة والمعرفة ، ويعمل فكره ويستشير الآخرين ويحسن الصحبة، حتى يستطيع أن يكمل مشوار حياته في أمان.

٢- الصراع بين الملتزم ومن حوله (وقوع الخلاف بين سعد وأمه بعد إسلامه).

في بداية الالتزام..عادة ما ينشأ صراع بين الملتزم ومن حوله نتيجة لتغير الأفكار والعادات لدى الشخص الملتزم، وهذا الصراع يبدأ بالأسرة ثم الأصدقاء ثم تتسع الدائرة لتصل إلى المجتمع ككل، وسبب هذا الصراع يختلف من حالة إلى أخرى كالتالي:

أ- قد يكون نتيجة لقيام الشخص الملتزم بأفعال مستفزة حتى وإن كانت صحيحة، مثل إغلاق التليفزيون على فيلم يراه غير مستحسن مشاهدته، أو تعنيف أخ له نتيجة لعدم صلاته في المسجد،أو نقد الأب نتيجة لارتكاب خطأ في صلاته أو تدخينه السجائر، ونحن لا نعترض على الدعوة من أجل التغيير داخل المنزل، ولكن التغيير المفاجئ دون تمهيد مدروس، هوالذي يسبب الصدام والفشل.

ب- قد تمرر الأسرة الموقف، ولكنها تبدأ في الاعتراض نتيجة لملاحظة ظهور سلبيات على الشخص الملتزم بعد التزامه، مثل التأخر الدراسي أوالانعزال عن الأسرة والأقارب والجيران، أو اتهام الناس بتهم صادمة مثل الفسوق والكفر، أوالانغماس في العبادة بصورة يهمل معها مصالحه ومصالح أسرته.

جـ- الحديث في الأمور السياسية كثيرا بالمنزل، مما يزرع الخوف في قلب الأب والأم ويشعرهما باستمرار أن الابن قد أصبح معرضا للخطر بنتيجة التزامه.

د- غالبا ما يواجه الشخص الملتزم بالسخرية من أصدقائه، وكلما شعروا بالضعف من ناحيته زادوا من سخريتهم له، ولا حل لهذه المشكلة إلا بقوة شخصية الملتزم أمام أصدقائه، وثقته في نفسه ودفاعه عن تدينه بعزة ولطف دون صدام.

٣- تفضيل حب الله على حب الوالدين، لا يعني سوء معاملتهما.(الآيات تنزل بمصاحبة

الوالدين رغم الخلاف في العقيدة).

ليس معنى أن يغلب حب الله حب الوالدين، أن نعامل آباءنا بجفاء أو تجهم أو تعال؛ إن ذلك يتنافى مع عقيدة الإسلام التى نؤمن بها، ومهما وصل الخلاف، فلتكن المعاملة بالرفق واللين والبسمة والحوار، ولتتحمل غضبهم إن حدث.. في سبيل الله.

٤- دائما المعايير الأخلاقية والعملية (لا التعبدية)، هى التى تفضل البشر على بعضهم البعض في الدنيا والآخرة (حديث الرسول ﷺ: يدخل عليكم رجل من أهل الجنة).

يعتقد الناس ويعتقدون دائما أن التعبد من كثرة صيام وصلاة وقيام ليل، هوالفيصل في الحكم على الأشخاص في الدنيا ودرجاتهم في الآخرة، إلا أن الإسلام يعلمنا في مواقف عدة أن الميزان دائما ترجح كفته لصاحب الخلق والعمل الصالح، (بعد أداء الفروض التعبدية بالطبع) مثل موقف سعد: « يدخل عليكم رجل من أهل الجنة »، وفى الحديث الشريف:

عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، إن فلانة تصلى بالليل وتصوم النهار وفي لسانها شيء تؤذي جيرانها، سليطة. قال:« لا خير فيها، هى في النار» وقيل له: إن فلانة تصلي المكتوبة وتصوم رمضان وتتصدق بالأثوار (قطع الجبن القديم)، وليس لها شيء غيره ولا تؤذي أحدا. قال: «هي في الجنة».

أخرجه الإمام أحمد والحاكم ، ولفظ الإمام أحمد: «ولا تؤذي بلسانها جيرانها».

وليس معنى هذا أننا نقلل من أمر العبادة، ولكننا نكرر ونؤكد أن هدف العبادة هوالتزود بالطاقة الإيمانية التي تمكننا من تفعيل الأخلاق الإسلامية والعمل في المجتمع لإصلاحه وتنميته.

٥- إعلاء قيمة الحب في الله والأخوة في المجتمع المسلم (سعد بن أبي وقاص رجل من أهل الجنة لأنه لا يكن ضغينة لأحد).

ربما جاء إعلان أن «سعدا» رجل من أهل الجنة أمام كل المسلمين وأمام التاريخ؛ لأنه لا يكن ضغينة لأحد.. إعلاء لقيمة الحب في الله والتسامح والأخوة بين المسلمين، من أجل تقوية البناء الاجتماعى والروابط الإنسانية في المجتمع المسلم، ليظل المسلمون قادرين على الحفاظ على قوتهم بين الأمم. وهو ما يفسر انهيار المسلمين الآن، بعد أن فقدوا قيم المحبة والتسامح والمودة فيما بينهم، وعلت بدلا منها، قيم المصلحة الشخصية والتعالي والرغبة في الانتقام.

٦- استخدام نعم الله في أوجه الحق والخير (سعد يحسن استخدام الدعاء).

من الله سبحانه وتعالى على سعد بنعمة إجابة الدعاء، فلم يفكر أن يستخدمها في إيذاء الناس وإلحاق الأذى بهم.. لسببين:

الأول: أنه يعلم أن الله لا يستجيب لمن يدعو بشر.

والثاني: أنه يعلم أن النعمة مسئولية سوف يحاسب عليها يوم القيامة، فلا ينبغي أن يستخدمها استخداما يجازى عليه أمام الله يوم القيامة.

وقد يعطيك الله من النعم الكثير مثل: الصحة والمال والعلم .. فلا تحسن استخدامها في أوجه الخير والطاعة، وتسير بها في طريق الشر والمعصية ، فيحرمك الله منها، ثم يحاسبك عليها يوم القيامة.

٧- رد الغيبة خلق مفقود بين المسلمين (سعد يرد غيبة علي بن أبي طالب).

لم يتحمل سعد بن أبي وقاص أن يغتاب أخ له هو على بن أبي طالب أمامه، لعلمه أن رد غيبة أخيه واجب عليه، والغيبة أحد المصائب التى منى بها المجتمع المسلم؛ ففرقت الأصحاب ونزغت بين الأحباب وجلبت الفتن والمصائب، وهي داء عضال يشق المجتمع ويفرق الصف.

إن واجبك نحوأخيك وصديقك ألا تغتابه، وإذا سمعت أحدا يتناوله بسوء؛ فعليك أن تدافع عنه ما استطعت، أو تترك مجلسه إن لزم الأمر.

٨- إنكار الذات والإخلاص أحد أسرار تقدم المسلمين (سعد يتلقى التعليمات من عمر بن الخطاب بكل تواضع).

أخذ سعد يتلقى التعليمات من عمر بن الخطاب في القادسية كأنه جندي، ينفذ التعليمات بكل دقة وإخلاص، فلم يغضب أو يتذمر وكان النصر المبين.

إننا في عصر.. يحاول الجميع فيه أن يستعرض من أجل الظهور بدور البطولة، حتى وإن كان ذلك على حساب الوطن والمصلحة العامة، ويحاول الكثير أن ينسب الفضل لنفسه ساعة النصر ويلصق التهمة بالآخرين وقت الهزيمة، إن شهوة حب النفس والمظهرية قد تمكنت من النفوس فأصبحت مرضا أصاب المجتمع بالفشل في كل المجالات.. في السياسة والتعليم والرياضة والفن...إلخ.

إن معجزة الإسلام تكمن في أنها تربي النفوس على التضحية بكل شيء من أجل الله، فتجعلها لا تنتظر الشكر من الناس على عمل قامت به، إنما تنتظر الثواب والجزاء من الله في الآخرة، وتجعل فرحتها عند رؤيتها لنصرة دين الله أو خدمة أهلها أو رفعة وطنها، أعظم وأجل من أن ينسب الفضل لها أمام الناس.

٩- العدل أحد الأسباب الرئيسية في قوة المسلمين أيام الخليفة عمر بن الخطاب، وغيابه أحد الأسباب الأساسية في ضعف المسلمين الآن (عمر بن الخطاب يحقق في شكوى مقدمة من أهل الكوفة ضد سعد بن أبي وقاص).

قام الإسلام على العدل واحترام رأي الشعوب والمساواة بين الحاكم والمحكوم، وكان التحقيق مع سعد بن أبي وقاص لوصول شكوى من أهل الكوفة ضده إلى عمر بن الخطاب أكبر دليل على ذلك، وهو مشهد نادر الحدوث في بلادنا الإسلامية الآن، حيث تكثر الشكاوى من المسئولين، ومنهم من يتهم بالرشوة والسرقة وأكل حقوق الناس فلا يحاسب ولا يعاقب، فتفشى الظلم، وحقر من أمر الناس، فاستهزأت بنا الأمم، وصرنا أضحوكة العالم.